الروحانية بين الأنبياء الثلاثة

للأستاذ عباس محمود العقاد

الأديان الثلاثة: الإسرائيلية والمسيحية والإسلام، ظهرت كلها بين السلالات السامية وكان أنبياؤها جميعاً من الساميين

والإجماع منعقد على هذا بين المؤرخين كافة، نعني انتساب موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام إلى هذه السلالة، يشذ عنهم «فرويد» العالم النفساني الإسرائيلي المشهور، فهو ينسب موسى إلى الجنس المصري القديم. وبعض الباحثين يقولون إن الجنس المصري القديم منحدر من الأصول الأوربية

ويشذ عنهم في أمر المسيح أولئك الدعاة الجرمانيون الذين يتعسفون الأنساب لكل عظيم فيردونه إلى الأصل الجرماني أو السلالة الآرية على التعميم. فهؤلاء الدعاة يزعمون أن صفات المسيح المتواترة أقرب إلى الملامح الآرية الشمالية، وينظرون من جهة أخرى إلى الملامح الفكرية أو الأدبية فيزعمون أن الروحانية التي تظهر في أقوال السيد المسيح أكبر وأرفع من طاقة «السلالة السامية» التي يحسبونها مقصورة على الماديات الملموسة والمطالب الأرضية القريبة

وكلا القولين — قول فرويد وقول الدعاة الجرمانيين — لا يؤيده دليل قاطع ولا يتعدى الأخذ بالظنون

فمن المعتقد أن يكون موسى مصرياً ثم يجتمع له زعامة الإسرائيليين من جميع القبائل والبطون في الديار المصرية؛ ومن السخف أن يكون المسيح «آريا» تطبيقاً لقاعدة يخترعها دعاة الجرمانية، ثم يسندونها بالظنون ويعودون فيسندون الظنون بتلك القاعدة المخترعة

وعلى هذا يصح أن ينعقد الإجماع — كأصح ما انعقد في مسألة من المسائل — على أن البيئة السامية هي البيئة التي ظهرت فيها الأديان الثلاثة، وأن موسى وعيسى ومحمداً جميعاً من سلالات الساميين

أهذه المزية الجنسية دلالة عامة! وهل نشأت الأديان الكبرى الثلاثة بين أبناء الجنس السامي لسبب عنصري يخص هذه السلالة، أو لسبب نفساني يرجع إلى طبيعة العقيدة الدينية؟

تكلم في ذلك المتكلمون فأثبتوا وأنكروا كما يحبون أو يكرهون. فمن قائل إن العقل السامي بفطرته مستعد للاعتقاد غير مستعد للتفكير أو الخلق الفني والنظرات الفلسفية المجردة؛ ومن قائل إن العقيدة الدينية نفسها طور من أطوار الزعامة العنصرية التي تطور فيها الساميون إلى مداها الأقصى، قبل أن يخرج الآريون الشماليون من نظام القبيلة الأولى

ولا يتسع المقام للتقصي في أقوال المثبتين والمنكرين، فحسبنا أن نقف في أول الطريق على بر الأمان، فنقول إن العقائد الدينية ظهرت في السلالات السامية يوم كانت تظهر فيهم جميع المعارف الكونية والنهضات الثقافية، فلا محل لتخصيص الأديان هنا بالعنصر السامي أو اتخاذ هذه الخاصة دليلاً عنصرياً من تلك الأدلة الكثيرة التي تختلط بالمصبيات

كانت الدول الكبرى كلها قائمة في الرقعة الغربية من القارة الآسيوية، وهي الرقعة التي أقام فيها الساميون منذ مئات الأجيال. فشاعت المعارف الكونية من هذا الوطن القديم، ولم ينحصر الأمر يومئذ في ظهور العقائد دون غيرها من النهضات أو الفتوح في عالم الروح

* * *

نحن لا ننكر الفوارق العنصرية ولا نستخف بآثارها في اختلاف الأمزجة والأخلاق وتباين المشارب والميول، ولكننا

لا نحب أن نعزو إلى الفوارق العنصرية إلا الذى يثبت ثبوتاً قوياً أنه راجع إليها . فلا نقول إن « العقائد » سليقة سامية إلا إذا تبين أن الآريين يعزل عن العقائد ، وأن الساميين لا يمتازون بغيرها ، وأن المسألة محصورة فيهم على مدى العصور وليست مسألة عصر ومناسبة زمانية أو مكانية

كذلك نرجع إلى الروحانية بين الأديان الثلاثة فلا نجعل العنصرية حكما فيها قبل أن نستنفد العوامل الأخرى جميعاً ، وإن جاز أن يذكر الاستعداد العنصرى بين عوامل شتى يحسب لها حسابها فى هذا الموضوع

فالذى يقال مثلاً إن السيد المسيح عليه السلام كان صاحب دعوة روحانية لا تشتغل بشئون الدنيا ولا بالمطالب العملية التى تحتاج إلى وضع النظم وفرض الشرائع ، وأن علة ذلك فى رأى بعض الباحثين أن المسيحية تشابه العقائد الآرية التى جعلت الدين للروح والضمير ولم تجعله لمطالب الجسد أو مطالب الحياة الاجتماعية والنظم السياسية

وهذا الذى يقع فيه الخلاف الكثير

فاهتمام السيد المسيح عليه السلام بالجانب الروحى من الدين لم يصرفه أولاً عن الجوانب الأخرى التى تناولتها سائر الأديان ، ولم يكن لفارق عنصرى بين الذين خوطبوا بالدعوة المسيحية والذين خوطبوا بالدعوة الإسلامية أو الدعوة الموسوية

واهتمام السيد المسيح بالجانب الروحى ليس معناه — من الوجهة الأخرى — أن هذا الجانب لم ينل حظه من الاهتمام فى دعوة محمد أو دعوة موسى عليهما السلام ؛ وإنما معناه أنه جانب من الجوانب الكثيرة التى عنى بها الإسلام خاصة ، وكان لها مهم فى العناية من وصايا الأنبياء الذين ظهروا فى بنى إسرائيل

وقبل أن نحصر الأمر فى علة « الاستعداد العنصرى » نعود إلى العلل المختلفة فنسأل : ألم تكن هنالك علل أخرى جعلت رسالة السيد المسيح أقرب إلى الروحانيات منها إلى العمليات والشئون الدنيوية ؟

فاذا سألنا هذا السؤال لم نستطع أن نقول إن السامية أو الآرية هما الحد الفاصل فى هذا الموضوع

فقد كانت هنالك علل كثيرة خليقة أن تقصر الدعوة المسيحية الأولى على مواعظها الأخلاقية التى أوشكت أن تقتصر عليها

فمن تلك العلل أن بنى إسرائيل كانوا أصحاب شريعة دينية مفصلة فى شئون الحقوق والمعاملات قبل أن تتجه إليهم دعوة السيد المسيح ، وكانت آداب القائمين على تلك الشريعة هى موضع العهدة أو موضع الحاجة إلى الإصلاح ، فلا جرم تتجه إليهم الدعوة من هذه الناحية ولا تتجه من ناحية التشريع الفصل فى شئون الحكم وشئون المعيشة ، بل كان من قول السيد المسيح الصريح أنه لا ينقض الناموس ولكنه يثبته ويزكيه

ومن تلك العلل أن السيد المسيح ظهر فى بلاد يحكمها الرومان ويتولى إدارتها أولئك القوم الذين اشتهروا بالنظم والشرائع وتبويب الأوامر والقوانين ، وما لم تكن الدعوة المسيحية ثورة سياسية معززة بقوة الجند والسلاح فلا سبيل فى بدايتها إلى تفصيل الشرائع وانتزاع سلطان الحكم من أيدى القابضين عليه ، وإنما السبيل الأوحد أن تنصلح الأخلاق والضمائر بالعظة والهداية الروحية على السنة التى اختارها السيد المسيح ويختارها فى مكانه كل داع إلى دين جديد يتذرع إلى دعوته بالإقناع لا بالسلاح والصراع

فهذه العلة كافية لتعليل الصبغة الروحانية التى غلبت على المسيحية ، وإنها لأقرب إلى تعليلها من الرأى القائل باقتباس المسيحية من العقائد الهندية أو الآرية فى جملتها ، لأن هذا الرأى يلجئنا إلى إقامة فاصل بين ساميين وساميين ، ولا يبطل الاعتراض الذى يرد فى هذا الصدد حين يسأل السائل : وماذا كانت الدعوة المسيحية صانعة إذا هى فرضت الشرائع بغير حكومة وبغير ثورة مسلحة وبغير موافقة من أصحاب الأمر بين الرومان أو بنى إسرائيل ؟

أما الإسلام فلم يكن معقولاً أن ينحصر فى المواعظ الروحانية

دون غيرها ، لأن العرب لم يدينوا بشريعة عامة مفصلة قبل الإسلام تفنيهم عن تشريع جديد ، ولأن الإسلام قد تولى الحكم كما تولى الهداية النفسية ، فلا مناص هنا من إقامة الحدود وبيان الحقوق وتقرير الحكم فى كل شأن من شئون المعيشة تتولاه الحكومات

وكذلك موسى عليه السلام فى قيادته للقبائل الإسرائيلية ، لأنه كان فى مقام الزعيم الذى يسوس تلك القبائل بالشرائع المرعية فى زمانه والشرائع التى اقتضاها خروجه من ديار مصر إلى ديار كان فيها لبنى إسرائيل موطن قديم . فاهتم بتسجيل الشرائع المصرية والإسرائيلية والموسوية ، واهتم إلى جانب ذلك بمصالح قومه ، لأن العمل الأكبر الذى تصدى له إنما هو إنقاذ إخوانه فى العنصر والعقيدة ، فهو عمل « وطنى » مقدم فى زمانه على الوصايا الإنسانية العامة التى تشمل الأمم كلها كما تشملها كل نصيحة أخلاقية أو موعظة روحية

وهذه العلة كافية أيضاً لتعليل الصبغة العملية التى غلبت على الدعوة الموسوية فأصبحت شيئاً غير المسيحية فى الروحانية أو البشارة الإنسانية التى تخاطب جميع الأمم كما تخاطب بنى إسرائيل . ولا حاجة فى هذا المقام إلى التفريق بين ساميين وآريين ، أو التفريق بين طائفة من السلالة السامية وطائفة أخرى ، إذ لو كان موسى آرياً وكان أبناء إسرائيل آريين لما سلك غير مسلكه معهم فى شئون التشريع والمصالح الوطنية أو المصالح العنصرية

ونعود فنقول إننا لا ننكر الفوارق بين العناصر والأقوام ، ولكننا ننكر الفوارق التى يفرضها بعض الباحثين المتعسفين بغير دليل ولا قرينة راجحة ، ونحب أن نقيم البحث فى أسرار العقائد وأسرار نجاحها فى زمانها ومكانها على العلل الكونية التى جرى عليها نظام الوجود ، لأن الأسرار الإلهية التى توحى بها الأديان لن تناقض المعقول من سنن الكون وفطرة الأشياء .

عباس محمود العقاد

بمناسبة السنة الهجرية قررت مكتبة الجامعة بشارع محمد على بمصر

عرض هذه الكتب بالأسعار المرفقة بعد وتطلب منها نصيبا

قرش صاغ		قرش صاغ	
٢٥	الاسلام والتجديد فى مصر	٣	رواية عياه تمثيلية
٢٠	محاضرات إسلامية للجديلى	٢٠	مرشد الطباخ الحديث
١٥	محاضرات فى النصرانية لأبو زهرة	٢٥	لاعبات بالنار لمحمود كامل
٤٠	تهذيب الكامل للمبرد جزآن	٣٠	إلتماس إعادة النظر فى الأحكام المدنية
٢٥٠	معجم الأدباء ٢٠ جزء	٢٥	الوقف للشيخ عشوب
١٢٠	قاموس سعاده إنكليزى وعربى	٢٠	الأصول القضائية فى المرافعات الشرعية لفضيلة الشيخ قراعة
٨	نسم الجنة لقراعة	١٥	ديوان أغاريد ربيع لفؤاد بليبل
١٠	الوقف «	٢٠	الكنوز الملكية فى الزراعة المصرية (جزآن)
١٥	وحى الموت «	١٠	الجداول الحسابية لملك الهورى
٣	مناجاة الجمال ومعانى الحب «	٢٥	جواهر الأدب للهاشمى
٨٠	الذخيرة لابن سام جزآن	١٥	جواهر البلاغة
٢٠	رسائل فلسفية للرازى	١٥	أسلوب الحكيم فى الانشاء
١٥	رسائل بن بطلان	٨	قاموس البيت تدبير وطهى
٨	الأدب والدين	٣	ترجمة ابن حديس
٣	قصة ملكة سبأ مع سيدنا سليمان	٣	« البهاء زهير
٣٥	الانسان دين أدب اخلاق ٤ أجزاء	٣	« البارودى
٨٠	علم الدولة ٤ أجزاء كبيرة	٤	« المنفى
٨	متشابهات المتشاوى	٢٠	الفقه على المذاهب الأربعة
١٥٠	الطب الشرعى	١٥	حياة مى
١٠	نداء المجهول لمحمود تيمور	٦٠	التصوف الاسلامى جزآن
٢	تطور القصة «	٥٠	ليلى المريضة ٣ أجزاء
١٥٠	قانون العقوبات سنة ٤٢	٣٠	سعد زغلول من أقضيته